استدعاء التراث الإسلامي في الشعر الأيوبي
ابن الساعاتي نموذجًا

الباحث / إيهاب عبد الباسط عبد العزيز الأعصر

الملخص:

يسعى هذا البحث إلى دراسة استدعاء التراث الديني في الشعر الأيوبي ابن الساعاتي نموذجا، فقد شهد العصر الأيوبي إذكاء للشعور الديني والاهتمام به، وذلك بسبب الحروب الصليبية التي أدت للحث على الوحدة الدينية كمقاومة هؤلاء الصليبيين ومواجهتهم والتصدي لهم، ومن أهم هذه المصادر القرآن الكريم ؛ إذ يظهر كثيرًا من الجوانب المحاكية لآياته وصوره ودلالاته محورًا بما يستدعيه النسق الشعري والتجربة الخاصة.

Abstract

This research seeks to study the recall of the religious heritage in Ayyubid poetry Ibn al-Saati as a model, as the Ayyubid era witnessed an increase in religious feeling and interest in it, due to the Crusades that led to the urge to religious unity, such as the resistance of these Crusaders, confronting them and confronting them. It shows many aspects that mimic its verses, images, and connotations at the center of what the poetic pattern and special experience require.

المقدمة

لا شك في أن للتراث الديني دورًا كبيرًا في الإلهام الشعري، " ولا يقتصر الموروث الديني على دين واحد، فالموروث الديني يشتمل على تجارب وخبرات إنسانية عديدة، لهذا فإنه مبعث للاستلهامات وإطار للتعبير الأدبي والفني. كما لا يقتصر الاستلهام الشعري على ناحية واحدة، فأي ظاهرة دينية لها أكثر من دلالة نفسية واجتماعية ودينية "[١].

ويعد الأدب هو اللسان الناطق للمجتمع بلسان الأديب الذي يعيش ويتأثر بما يؤثر بهذا المجتمع " وخصوصًا السلطة الدينية التي تنظم العلاقات به، من خلال الثقافة التي تختزن في

ذاكرة الأديب ليصوغها أدبًا قائمًا على التناص مع المراجع الدينية "[٢]، وذلك عن طريق " تداخل نصوص دينية مع النص الأصلي عن طريق الاقتباس أو التضمين في القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف أو الأخبار الدينية "[٣]، وحضورها في النص الذي ينتجه الأديب سيوظف به مرجعيته الدينية التي تؤثر في إنتاجه بوعي أو بدون وعي.

بالإضافة إلى ذلك فالتأثر بالنص الديني يأتي كما يريده الشاعر، لا كما يريده النص المقتبس منه " فقد يكون النص الحاضر متوافقًا أو معارضًا أو مختلفًا عن النص الغائب، فالشاعر لا يقدم النص الديني كما هو بل يحوره ويعطيه الطابع الذي يريده الشاعر وإنتاجه لنص جديد يختلف عن النص أو النصوص السابقة، واستحضار النصوص الغائبة جاء لاختزالها في ذاكرة الشاعر ولإرادة الشاعر "[٤].

كما أن توظيف هذه النصوص الغائبة " ليس مجرد عملية يقوم بها الشاعر دون أن يكون لها وظيفة، وإنما عملية تفجير لطاقات كامنة في هذا النص يكتشفها شاعر بعد آخر، كلٌّ حسب موقعه وإحساسه الشعوري الراهن "[٥] لتجربة آنية تستعيد المخزون الثقافي ككل، لصياغة هذه التجربة، وتوظيف المخزون من قِبل الشاعر مع ما يتناسب مع رؤيته وتجربته في هذه الصياغة التي استعادت مخزونه الفكري واللغوي لينتج هذا النص الجديد.

وقد شهد العصر الأيوبي إذكاء للشعور الديني والاهتمام به، وذلك بسبب الحروب الصليبية التي أدت للحث على الوحدة الدينية لمقاومة هؤلاء الصليبيين ومواجهتهم والتصدي لهم.

" وقد أخذ هذا الشعور الديني عند المسلمين ينمو ويشتد لحاجة المجتمع إلى نموه لتعبئة الشعور العام ضد غزو الصليبيين، وساعد الحكام على تنميته، والنفخ فيه واتخذوا لذلك أسبابًا كثيرة، منها تشجيع الفقهاء، وتقربهم، كالعكوف على الصلاة وقراءة القرآن والاستماع إلى الحديث، وبناء المساجد ومدارس القرآن والحديث "[٦].

ومن أهم هذه المصادر القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فأصبحت مؤثرة في الشعر والنثر وصفة عامة للمجتمع الأيوبي، لذا فقد ظهرت جليًّا في شعر الشعراء، وكتبة الكتاب في هذا العصر. وابن الساعاتي كغيره من الشعراء الذين أخذوا ينهلون مما علق وتخزن من هذه الثقافة الدينية ليوظفوها ويصوغوها في شعرهم.

والمتصفح لديوان ابن الساعاتي يجد هذه الظاهرة حاضرة بقوة، ظاهرة توظيف التراث الديني المتمثلة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والتاريخ والعلوم الشرعية ؛ لتأخذ حيزًا في شعره، ولكن الأثر الواضح كان للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، حيث " أفاد ابن

الساعاتي من دينه الإسلامي ومصادره القرآن الكريم تعاليمه ومفرداته وقصصه والحديث النبوي الشريف. فقد استلهم هذه العناصر لرسم صوره الشعرية موظفًا تجارب هذه الحوادث والشخصيات الدينية في قالب خاص صنع منه صوره " [٧].

(أ): توظيف القرآن الكريم

إن قارئ ديوان ابن الساعاتي يجده حافلا بتوظيف القرآن الكريم، مما يدل دلالة واضحة على أن ابن الساعاتي ذو ثقافة دينية واسعة وعلى دراية كبيرة بها، مما ترك أثرًا كبيرًا في إنتاجه الشعري بوعي أو بدون وعي، يساعده على تقديم رؤيته الشعرية من خلال الاقتباس أو التضمين من القرآن الكريم ؛ حتى يصبح النص الجديد له يمثل نفسه دون حاجة إلى تمثيل النصوص الغائبة " فالشاعر يتشرب نصوصًا مختلفة تصبح بالتدرج عنصرًا أساسيًّا من ذاكرته الفنية، وتختلط هذه النصوص وتذوب بمعارفه المتنوعة، وتظهر من خلال نصوصه الجديدة "[٨].

فالنص الجديد عبارة عن تضمين " نص أدبي ما نصوصًا أو أفكارًا أخرى سابقة عليه الاقتباس أو التضمين أو الإشارة أو ما شابه ذلك من المقروء الثقافي لدى الأديب بحيث تندمج هذه النصوص أو الأفكار مع النص الأصلي "[٩].

والقرآن الكريم ليس نصًّا تراثيًّا قديمًا، " وإنما هو نص حي حاضر في كل مكان وزمان، يفيد المبدع من معجزاته، ومن آياته وقصصه وأحكامه وكل ما فيه من أسباب الإعجاز، وتبقى أسباب الإعجاز فيه تزداد ولا تنقص، ويفيد منها القاصي والداني في مختلف الأقطار والأمصار "[١٠].

كما يعد القرآن الكريم " نصًّا خصبًا وغنيًّا بطاقات لغوية وفكرية وفنية وهو الأنموذج الأعلى للصياغة في مختلف العصور الذي سعى إليه الشعراء والكتاب للرقي بأساليبهم الفنية "[١١].

كما أن " القرآن الكريم يحمل للإنسان في كل زمان ومكان دلالات لا متناهية، ويفسر أشياء تمس حياة الإنسان "[١٢].

وقد أظهر ابن الساعاتي براعة فائقة في تعامله وتمثله للنصوص القرآنية وفهمها وإدراكها بشكل واع، مما جعل من هذه العملية " عملية تفجير لطاقات كامنة في النص، يستكشفها شاعر بعد آخر كل حسب موقفه الشعوري الراهن "[١٣].

وقد كان ديوان ابن الساعاتي شاهدًا على توظيف القرآن الكريم بشكل ملحوظ ؛ حيث كان رافدًا أساسيًّا نهل منه ابن الساعاتي في شعره، فاستقى من ألفاظه ومعانيه وصوره وقصصه ما يتناسب والموقف المعبر عنه.

يقول ابن الساعاتي متغزلا: (من الخفيف)

وجههُ كعبةٌ ومن خالهِ الرُّكْـ ـنُ فماذا يضرّه الاستلامُ[١٤]

خوَّفتني في حبِّه نارُ خدَّيـ ـه وفيها بردٌ لنا وسلامُ

جعل وجه حبيبه كعبة المحبين والخال فيه ركنها، ثم نجد المفارقة عندما يذكر خوفه من نار خديه مع أن فيها بردًا وسلامًا، وقد اقتبسه من قوله تعالى:" قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ "[١٥].

يقول ابن الساعاتي: (من البسيط)

كم بتُّ أبكي إليه وهو مبتسمٌ منّي ويجني على ضعفي وأعتذرُ[١٦]

وباذلاه الكرى والفكر أعملهُ ومانعاهُ حياءُ الوجه والخفرُ

ثم انثنى فأعاد الصبحَ مبسمهُ واسترجع الليلُ ما جادت به الطررُ

مهلاً عذولُ بقلبٍ لا يفيق هوًى فحادثُ الدهرِ لا يبقى ولا يذرُ

فالشاعر يتألم في حبه ومن قسوة قلب حبيبه حتى إن عذوله يتمادى في لوعه وعتابه، ويعتب الشاعر على الدهر الذي سلبه كل ما يحب، فهو كجهنم لا تترك شيئًا مما يلقي فيها ونجده في هذه الأبيات مقتبسًا هذه الصورة من قوله تعالى: وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨)(" [١٧].

ويقول متغزلا في مطلع قصيدة له: (من الخفيف)

راح يستمطر الدموع الغزارا حين جاز الوادي فآنس نارا[١٨]

رقصت في قميصها الأرجوانيْ يِ فكانت لها الدموعُ نثارا

برزت مثل وجنةِ الحِبِّ تزدا دُ على اللحظ وقدةً واحمرارا

تبعث الشوق والصبابة وهْنًا وتشبُّ الحنين والإدِّكارا

لقد أخذ شاعرنا في البكاء بدموع غزيرة، وذلك حينما عبر الوادي الذي كان فيه حبه وعشقه، فآنس نارًا، مقتبسًا ذلك من قوله تعالى:" إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى "[١٩].

وشاعرنا يرى لهيبها المتراقص كأنها راقصة في قميصها الأحمر، فكانت لها الدموع نثارًا، ويا لها من نار حين ظهرت كأنها وجنة الحبيب تزداد على اللحظ اتقادًا واحمرارًا، فهي تبعث الشوق وحرارته، وتشعل الحنين والذكريات الجميلة، وشبيه ذلك في موضع آخر قوله في جواب كتاب: (من المتقارب)

وما كلُّ كاتبِ فضْلٍ سواك يطلع في جنح ليلٍ شموسا[٢٠]

وإنْ أمَّ ذو التيه وادي هداه آنـ ـس من فكره نارَ موسى

يشير إلى نار موسى الكليم عليه السلام في وادي طوى المقدس، فإذا أتى تائه إلى وادي جوده رأى هناك نار القِرى المتقدة فينال الخير.

وله يهجو أحدهم: (من البسيط)

فرب يومٍ غدونا في عراصك أكْـ كَالين للسحت سماعين للكذبِ[٢١]

هو الأمين فلا تخشى أناملهُ إلا على الفضة البيضاء والذهبِ

تبت يداه فكم في كل جارحةٍ منه وإن عُدَّ فردًا من أبي لهبِ

نجده في البيت الأول يقتبس من قوله تعالى:" سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ "[٢٢]، حيث وظف الشاعر الآية فجعل المهجو حاكمًا بالعلم، والشاعر وصحبه فإنهم سماعون لأكاذيبهم، كما أنه غير أمين، وفي البيت الثالث يقتبس من قوله تعالى:" تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ "[٢٣]، فهو كأبي لهب، ففي كل عضو منه أبو لهب، فهو مجموعة نقائص مشتملة عليه.

وقال مادحًا: (من الخفيف)

نافذٌ سهمُ رأيه الفذِّ لا يثـ ـنيه كيدٌ ولا مضاعفُ درْعِ[٢٤]

واصلٌ قاطعٌ وما كلُّ سيفٍ كبني يوسفٍ لوصلٍ وقطعِ
وملوك الدنيا على البعد والقر ب سرابٌ بقيعةٍ في الخدْعِ

فممدوحه صائب الرأي، شجاع لا يخشى المخاطر، يفوق غيره من الملوك في صفاته وشجاعته، وهو صادق مع شعبه ليس كغيره من الملوك الذين يخدعون شعوبهم، فأعمالهم ووعودهم كالسراب الخادع، وقد استمد صورته من قوله تعالى: " وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ "[٢٥].

يقول في رثائه لابنه محمود: (من الكامل)

والموت أفنى قبل طسْمًا واختها وأباد عادًا متبعًا بثمودِ[٢٦]
كم غادر الحيان من بئرٍ معطلةٍ ومن قصرٍ هناك مشيدِ

يذكر الشاعر الموت بأنه أتى على الأمم السالفة مثل طسم وعاد وثمود، ثم يأتي بتوظيف تركيب (بئر معطلة وقصر هناك مشيد) متأثرًا بقوله تعالى: " فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ "[٢٧]، فقد غادرت هذه الأمم وغيرها ما كان فيها من بئر معطلة وقصر مشيد، مستفيدًا من الدلالة القرآنية التي أعطت هذا التركيب قيمة كبيرة، ومثل ذلك أيضًا قوله: (من مجزوء الكامل)

والخير يبقى ثم لا يبقى المَسُودُ ولا المُسَوَّدْ[٢٨]
كم ثَمَّ من بئرٍ معطلةٍ ومن قصرٍ مُشَيَّدْ
فبقيت في ظلٍّ تسايرُ عمرَ عزٍّ ليس ينفدْ

يؤكد ابن الساعاتي على أنه لا يبقى إلا الخير ويفنى المسود والمسود، ثم يوظف المعنى القرآني السالف ذكره، وأنت أيها الممدوح فلقد بقيت تساير عمر عز ومجد عظيم لا ينفد ولا ينتهي.

يقول ابن الساعاتي: (من الطويل)

أظل إذا دارت عليَّ زجاجةٌ أُظَنُّ سليمًا والفؤادُ سليمُ[٢٩]

إذا ما ارتقى شيطان عذلٍ محاولا سماوات سمعي فالدموع رجومُ

فقد جعل شاعرنا من يحاول ثنيه أو إبعاده عن الخمر وحثه على ترك محبوبته ؛ جعل جزاءه مثل جزاء الشياطين التي تحاول أن تسترق السمع فتُرجم بالشهب والنيازك ؛ إذ في ذلك إشارة إلى ما ورد من رجم الشياطين التي أرادت استراق الحديث السماوي بالشهب، فشبه مدامعه بالرجوم تمنع العذل من دخول سمعه، مقتبسًا ذلك من قوله تعالى: " قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)"[٣٠].

ومثل ذلك قول ابن الساعاتي: (من مجزوء الكامل)

يا بارقًا صدع الدجى من ومضه سهمٌ مرقْ[٣١]
قلبي وأنت وقرطه كلٌّ أهيم إذا خفقْ
ومدامعي ماءٌ ولكن فعلها فعل الحرقْ
واسأل بشيطان الملا م أراد سمعًا فاحترقْ

فقد جعل شاعرنا دموعه مطرًا غزيرًا ولكن لها فعل كفعل الحرق، ثم يقول اسأل شيطان العتاب إذا أراد أن يسترق السمع فاحترق.

يقول ابن الساعاتي في فتح (صلاح الدين) مدينة (طبرية) عام ٥٨٣هـ: (من الوافر)

جلَتْ عزماتُك الفتحَ المبينَا فقد قرَّتْ عيونُ المسلمينَا[٣٢]

يذكر أن عزمات صلاح الدين قد أظهرت وكشفت الفتح المبين، ذلك الفتح الذي طابت به عيون المسلمين، وقد استمد ذلك من قوله تعالى: "إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا"[٣٣].

ومن ذلك قوله في القصيدة نفسها: (من الوافر)

تهز معاطف القدس ابتهاجًا وترضى عنك مكة والحجونا[٣٤]
فلو أن الجهاد يطيق نطقًا لنادتك ادخلوها آمنينا

لقد جعل صلاح الدين مدينة القدس مبتهجة سعيدة بفتح طبرية، وقد أرضى به مكة والحجون، ولو كان ذلك الجهاد يستطيع كلامًا لقال ادخلوها آمنين، مقتبسًا ذلك من قوله تعالى: " إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ "[٣٥].

وقوله في مدح أحدهم: (من الخفيف)

ذا سماحٍ يعيد غصن الصِّبا غضًّا وبأسٍ يُشيِّبُ المولودا[٣٦]

يذكر ممدوحه بصفات الكرم والجود، فهو يعيد غصن الصبا غضًّا طريًّا، كما أنه ذو بأس شديد وقوة تجعل الولدان شيبًا، مقتبسًا ذلك من قوله تعالى: " فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا" [٣٧].

إلى أن يقول في القصيدة نفسها: (من الخفيف)

جاد جود الحيا فأغنى فقيرًا حين شاد العلا فأحيا فقيدا [٣٨]

سَبَلٌ واحدٌ يعيد بنا الآ مالَ والمالَ قائمًا وحصيدا

يجود ممدوحه في عطائه كما يجود المطر فأغنى الفقير وأحيا الفقيد، فهو كالسبل أي كسيل من المطر، ويعيد بكرمه بناء العالي قائمًا والمال محصودًا، متأثرًا بقوله تعالى: " وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ " [٣٩].

كما كان توظيف ابن الساعاتي للقصص القرآني وشخصياتها واستحضارها في شعره، سببًا لخدمة غرضه وهدفه الشعري وتناسب القصة القرآنية مع ما يريد أن يوصله للمتلقي ؛ وقد استخدم ابن الساعاتي عدة قصص قرآنية وبأغراض مختلفة، ويأتي استخدام هذه القصة للوقوف على جوانب معينة في القصة وخصوصًا جانبها الوصفي وتقريب المعنى الذي يريده مع الحالة الشعورية الخاصة والتوظيف الذي يعكس الجانب المتمثل في إيراد القصة دون النقل المباشر أو الحشو الزائد.

والقصص التراثية سواء – أكانت دينية أم غير دينية – " لا تحمل دلالة ثابتة تعد مرادفًا لها في الوعي الجمعي ؛ حيث يمكن أن تصبح شفرة حرة متفاعلة قابلة لتعدد الدلالة عند توظيفها فنيًّا في سياق القصائد الشعرية، ولهذا يجب أن ينظر إلى نجاح التوظيف أو فشله فنيًّا من خلال رصد مدى اندماج الشخصية التراثية داخل بنية النص ومقدار مساهمتها في تعميق دلالته

الكلية، وليس من خلال قياس مدى توافق التوظيف، أو مدى تخالفه مع المرجع التاريخي الذي يعد عنصرًا خارجيًّا عن النص ومفارقًا لطبيعته البنائية "[٤٠].

وقد استطاع ابن الساعاتي أن يتصرف أحيانًا " في القصة القرآنية، وأبدع فيها صوره الشعرية الخاصة التي اكتسبت الأثر الأكبر والجمال الأوفر من ارتباطها بها، واستطاعت القصة أن تنهض بالصورة الشعرية التي رسمها الشاعر لتجاربه الشعورية، بما قدمته من مساعدة في التعبير عما يريد التعبير عنه بقوة وتأثير في نفس المتلقي "[٤١].

ومن القصص القرآني التي تأثر بها ابن الساعاتي، وكان هذا التأثير واضحًا وجليًّا في شعره:

١ –قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام:

نجد توظيف هذه القصة أنها تتعدد في استخدام الشاعر لها من حيث الوقوف على جوانب مختلفة من قصة هذا النبي لتخدم في ذلك الجانب الدلالي للتوظيف، مما جعل الشاعر يقوم بتوظيف معجزة النبي في القرآن الكريم عندما أُلقي في النار.

يقول ابن الساعاتي: (من الطويل)

إذا نار خديه دخلت بناظري فيا فوزه يختال في جنتي عدنِ[٤٢]

ذكرتُ بها نار الخليل وقد رمى بطرفيَ نمرودَ الكآبة والحزنِ

أي إذا دخلت بناظري نار خديه فيا فوزه إذ هو يتباهى في جنتي عدن، ثم يشير في البيت الثاني إلى قصة الجبار نمرود وإبراهيم الخليل عليه السلام، أي أن جبار الكآبة رمى طرفي في نار خديه فكانت كنار إبراهيم بردًا وسلامًا عليه.

يقول ابن الساعاتي وقد ركب النيل للنزهة يستدعي بعض أصدقائه لذلك: (من الخفيف)

فبدور السقاة تحت سماء الدْ دَوْحِ تسعى بزاهرات النجومِ[٤٣]

كل حمراءَ ما أشبهها في الـ كأس إلا بنار إبراهيمِ

فبنات الكروم أولى وإن كا نت حرامًا بكل ندبٍ كريمِ

نجد هؤلاء السقاة كالبدور تحت سماء الأشجار وهي تسعى بزاهرات النجوم فهي خمر حمراء تشبه نار إبراهيم الخليل عليه السلام فبنات الكروم وهي كناية عن موصوف وهي الخمر أولى بالشرب بكل ندب ظريف نجيب كريم وإن كانت حرامًا.

فالجانب الدلالي جاء متناسبًا مع الجانب الأسلوبي لتوظيف الشاعر لهذه القصة، وما دلل عليها من قصة النار وإلقاء الخليل فيها، كما أن توظيف القصة في أكثر من موقف من شعر ابن الساعاتي كل منها في تركيب أسلوبي ودلالي مختلف.

٢ –قصة سيدنا يعقوب ويوسف عليهما السلام:

لا شك في أن المتصفح لديوان ابن الساعاتي يجد أن هذه القصة من أكثر القصص القرآنية التي وظفها الشاعر في شعره.

كما أنه يقوم بتوظيف هذه القصة في جانب المدح كما وظفها في الغزل والفخر أيضًا ؛ لأنها ذات أهمية كبيرة، فهو يوظفها بشكل متكرر، ولعل ذلك التوظيف يرجع إلى المكانة الدينية لهذا النبي وما عُرف عنه من سمات عدة من الجمال والحسن والعدل والعفة والتمكين من الله عز وجل، وكذلك لارتباط الممدوح – صلاح الدين – بهذه القصة من حيث الاسم (يوسف) المكانة التي حظي بها بجمع الشمل الإسلامي والتضحية من أجل الحفاظ على البلاد الإسلامية واسترداد بيت المقدس.

يقول ابن الساعاتي يصف شعره: (من المنسرح)

عقودُ دُرٍّ زانت محاسنَها وهْي على الحاسدين سِجِّيلُ[٤٤]

اليوسفياتُ في ملاحتها وفكرة المحسنين راحيلُ

ففي هذين البيتين وظف القصة في الفخر ؛ حيث يصف شعره بعقود الدر لكنها على الحاسدين حجارة من سجيل على الأعداء، كما أنها في حالها كيوسف عليه السلام، حيث جعل فكرة المحسنين كراحيل وهي أم يوسف عليه السلام، وكل محاسن يوسف في أبيات قصيدته.

وقوله متغزلاً: (من الطويل)

فغير جميلٍ أن تلوم ولم تبت طروب بنات الصدر أو ساهر الجفنِ[٤٥]

أتعذل يعقوب الصبابة والأسى لأن هزه شوقٌ إلى يوسف الحسنِ

لم يزل شاعرنا ساهرًا مهمومًا، ولذا فغير جميل أن يلومه حبيبه وكيف يعتب على من هو كيعقوب عليه السلام في صبابته وأساه وفي شوقه إلى سيدنا يوسف عليه السلام، فحاله كحال يعقوب في أساه وشوقه إلى يوسف عليه السلام.

ومثل ذلك قوله: (من مجزوء الخفيف)

شفَّ قلبي دلالهُ من شفائي وصالهُ[٤٦]

وغرامي بخاله جلَّ عما يخالهُ
فارسيٌّ نجاده يوسفيٌّ جمالهُ

نجد أن دلال محبوبه قد أتعب قلبه وشفاءه بوصال حبيبه وهو مغرم بخاله،فهو فارسي نجاده، وجماله كجمال يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

يقول في موضع آخر: (من الكامل)

سُرَّ الحسودُ بما أساء وأرجفا والله مما كنتُ خائفه كفى[٤٧]
بعث الشفاء إلى الزمان وأهله من بعدما كانوا وكان على شفا
وافى البشير فكان كلُّ مؤملٍ لقياهُ يعقوبًا ويوسف يوسفا

يذكر أنه فرح الحسود بما أساء وأرجف والله يكفيني مما أخافه، فقد أرسل الشفاء إلى الزمان وأهله، بعدما كانوا على شفا الهلاك، وقد وافى البشير بالبشرى فكان كل مؤمل كيعقوب عليه السلام حين لقي يوسف في مصر، ويوسف هنا إشارة إلى صلاح الدين الأيوبي

وقال متغزلاً: (من مجزوء الرجز)

خصرك هذا المُخَطَّفُ لكلِّ قلبٍ يخطفُ [٤٨]
أظلم في الحب كما شاء ولا أنتصفُ
أهوى حبيبًا سجنُهُ قلبيَ وهْو يوسفُ

نجد أن خصر حبيبه يخطف كل قلب، فهو يظلم في حبه له كما يريد ولا يأخذ بحقه منه، إذ هو يحب حبيبًا قلبي له سجنه وهو يوسف، إشارة إلى يوسف الصديق وسجنه في مصر، أي هذا الحبيب كيوسف في الحسن وقد أقام في قلبي.

يقول أيضًا: (من الكامل)

متدللٌ خَلَفَ الحِمامَ وعيدُهُ وَعَدَ الوصالَ أخا الحياة فأخلفا[٤٩]
هو يوسفٌ يقضي على يعقوبه ظلمًا فعدلٌ لو قضيتُ تأسُّفَا
جُدْ بالشفاءِ لعاشقٍ أسقمته يمسي ويصبح من هواك على شفا

نرى حبيب ابن الساعاتي ذا دلال وعيده الموت، وقد وعدنا بالوصال الذي هو كالحياة فأخلف وعده، فهو كيوسف في الجمال يحكم على يعقوب ظلمًا، والعدل لو قضيت تأسفًا وحزنًا، ثم يطلب منه أن يجود بالشفاء لعاشقٍ أمرضه فهو في مسائه وصبحه على شفا الهلاك من حبه له.

وفي القصيدة نفسها يقول: (من الكامل)

خلف العزيزُ الملكُ يوسفُ يوسفًا وخلفت أنت عزيزَ مصرٍ يوسفا[٥٠]

يشير ابن الساعاتي إلى أن الملك العزيز خلف يوسف صلاح الدين وأنت خلفت يوسف بن يعقوب.

ويقول مهنئًا المؤيد بإطلاق سراحه من الاعتقال في السجن: (من الكامل)

ولقد سُجنت وصيتُ مجدك مطلقٌ لك يا بن يوسف أسوةٌ في يوسفِ[٥١]

فمع أنه كان مسجونًا إلا أن شهرته وصيت مجده كان مطلقًا فله قدوة وأسوة في يوسف الصديق عليه السلام.

ويمدح صلاح الدين في فتح طبرية ٥٨٣ هـ: (من الوافر)

فكنتَ كيوسفَ الصِّدِّيقِ حقًّا له هوت الكواكبُ ساجدينا[٥٢]

فهنا إشارة إلى حلم سيدنا عليه السلام وكيف أنه تحقق وجعل الله رؤياه حقًّا.

وكذلك قوله من قصيدة في مدح صلاح الدين عندما خرب حصنًا قرب صفد وكان بيد الإفرنج: (من الطويل)

أيسكن أوطان النبيين عصبةٌ تمين لدى أيمانها وهي تحلفُ[٥٣]

نصحتكمُ والنصحُ في الدين واجبٌ ذروا بيت يعقوبٍ فقد جاء يوسفُ

يسأل مستنكرًا متعجبًا كيف يسكن ومن الأنبياء عصبة تكذب عنه أيمانها وهي تحلف، ثم ينصحهم بترك بيت يعقوب، وهو فلسطين، فقد جاء يوسف وهو صلاح الدين، وفي الكلام تورية.

ولعلنا نلتمس من هذه الأبيات وغيرها كيف كان الشاعر يحاول التقريب بين صورة النبي يوسف عليه السلام وبين الممدوح ليصل إلى صفات النبي من جمال وحسن وعدل وعفة وتمكين من الله في الأرض ؛ ليجعل الشاعر يرتقي إلى أعلى درجات المدح وفق معطيات قائمة من المجتمع الإسلامي وما ينعكس منه في قمة القبول للمتلقي.

٣– قصة سيدنا موسى عليه السلام:

إن توظيف الشاعر لقصة هذا النبي تأتي بارتباط الشاعر بالمكان ألا وهو مصر، مستغلا بذلك المرجعية القرآنية في إعلاء لغته الشعرية وصوره الفنية، كما يتكئ على معجزات هذا النبي وتوظيفها في شعره، كما في قوله: (من الكامل)

يا ضرة القمرين في شرفيهما من أي شيءٍ فيك لم أتعجبِ [٥٤]
أقبلت مثل الشمس في غسق الدجى وحملتِ برقًا ضاحكًا عن كوكبِ
كتبت بخديك المواشط فتنة عمت عموم هواكِ من لم يكتبِ
ولقد سمعت وما سمعت بكاتبٍ شيئًا على صفحات ماءٍ مذْهبِ
وكأنما رقم الجمال بكفِّهِ وجه الضحى بحريزةٍ من غيهبِ
جاء الكليمُ بآيةٍ من حيةٍ ولذاك جئت بحيةٍ وبعقربِ

ينادي شاعرنا على حبيبته التي هي ضرة القمرين الشمس والقمر، ثم يتساءل من أي شيء فيك لم أتعجب، فهي في غسق الدجى مثل الشمس، فقد حملت برقًا ضاحكًا عن كوكب، كما أن المواشط اللاتي يمشطن شعرها كتبن بخديها فتنة عمت قلوب الجميع غير المواشط الكاتبة، ثم يشير إلى آية موسى عليه السلام لدى فرعون بتحويله العصا إلى حية تسعى.

يقول أيضًا: (من الطويل)

كأن عصا موسى يراعي وحاسدي على نظمها فرعون والكلم السحرُ [٥٥]
لها فُلق البحرُ الخضمُّ نفاسةً وأخفي رءوسًا بين أصدافه الدُّرُّ

يشبه الشاعر قلمه بعصا موسى عليه السلام، ويشبه حاسده بفرعون وكلامه بالسحر؛ لذلك فقد انشق البحر الواسع نفاسةً، كما أخفى الدر بين أصدافه رءوسًا.

ويقول مادحًا نصير الدين الخضر بن بهرام: (من الكامل)

إن لم تكن خَضِرَ الكليمَ فَعَرْفُك الـ ـهادي نسيبُ نسيمه المتضوعِ [٥٦]
نلت السيادة يافعًا متهللاً وكبا وراءك كلُّ كهلٍ مسرعِ

يستخدم الشاعر اسم (الخضر) وهو الممدوح مشيرًا إلى اسم الخضر صاحب موسى الكليم عليه السلام، إشارة لمكانته العظيمة التي نال بها السيادة وهو صغير في حين غيره يسرع وراءه وهو كهل إليها.

٤ –قصة سيدنا سليمان عليه السلام:

لقد كان لتوظيف قصة سيدنا سليمان عليه السلام مع بلقيس حضور كبير، ومن ذلك قوله مادحًا: (من الطويل)

حرامٌ على الأفواهِ تقبيلُ تُرْبها وإن عبقتْ منها ذيولٌ وأردانُ [٥٧]
إذا جادها جفني بوابل مزنةٍ فلا جادها جفنٌ من الغيث هتَّانُ

وأنَّى اهتدت في ليل شعرٍ ودجنةٍ إلى مضجعي والنجمُ في الغرب حيرانُ
وما شكَّ قلبي أن بلقيس أقبلت وفي القصر ذو التاج الأعزِّ سليمانُ

نجد ابن الساعاتي في هذه الأبيات يتحدث عن " أطلال المحبوبة التي رحلت فبكى عليها دموعًا غزيرة، ويجعل محبوبته بلقيس، أما ممدوحه سليمان فهو في قصره، وقد تكلف ابن الساعاتي استحضار شخصية سليمان لتشابه الأسماء، ولكن القارئ لو لم يكن يعلم أن اسم الممدوح سليمان، لظن أن الشاعر سمى نفسه سليمان، ولكان معناه أكثر وضوحًا "[٥٨].

٥–قصة سيدنا داود عليه السلام:

كذلك كان توظيف قصة سيدنا داود عليه السلام لها أثر واضح في شعر ابن الساعاتي، يقول: (من الكامل)

سكري بخمري ريقه وسلافه طربًا لزهري ورده وخدودهِ[٥٩]
والوُرْقُ في أوراقهن كأنما عبثت بمزمارٍ يدا داوودهِ

نرى شاعرنا يسكر بريق المحبوبة والخمر معًا، كما يطرب لسماع غناء الحمام الذي يشبه مزامير داود عليه السلام.

يقول أيضًا: (من الكامل)

ما كنتُ أعلمُ أنَّ هُدْبَ جفونِهِ شَرَكٌ تصادُ به الكماةُ الصِّيدُ[٦٠]
شيمت ظباها فالقلوبُ جريحةٌ فعلام تدمى أنملٌ وخدودُ
كالفضة البيضاء لكن قلبه فظٌّ على العشاق فهْو حديدُ
أعجبتَ من أن لا يجود وإنما عجبُ الهوى لو بات وهْو يجودُ
نشوان لدن العطف لكن عطفه قاسٍ فليس يلينه داوودُ

لقد وقع شاعرنا في شرك عيون محبوبة، وقد جرحت القلوب منها، فعلام تدمى أنمل وخدود، فحبيبته بيضاء لينة القوام، لكن قلبها قاس كالحديد، حتى إن داود عليه السلام يعجز من إلانته وهو من هو في قدرته على تليين الحديد لنسج الدروع.

٦–قصة سيدنا يوشع عليه السلام:

نبي الله يوشع أو يشوع بن نون من أنبياء بني إسرائيل، وقد كانت له معجزة حيث أوقف الله عز وجل له الشمس، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس " [٦١]، وأورد الإمام مسلم في

صحيحه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: " غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ لاَ يَتْبَعْنِي رَجُلٌ قَدْ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ وَلاَ آخَرُ قَدْ بَنَى بُنْيَانًا وَلَمَّا يَرْفَعْ سُقُفَهَا وَلاَ آخَرُ قَدِ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ مُنْتَظِرٌ وِلاَدَهَا. قَالَ فَغَزَا فَأَدْنَى لِلْقَرْيَةِ حِينَ صَلاَةِ الْعَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ لِلشَّمْسِ أَنْتِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيَّ شَيْئًا. فَحُبِسَتْ عَلَيْهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ....."[٦٢]

وقد وظف ابن الساعاتي هذه المعجزة في شعره، ومن ذلك قوله: (من الكامل)

وعجاجةٍ مثل الدجى وكأنما ردَّت بها الشمس السيوفُ كيوشعِ[٦٣]

حامت نسور الجوَّ فوق كماتها حومَ العطاشِ لذيذ المكرعِ

نجد ابن الساعاتي يصف المعركة وهذا الغبار فيها مثل الظلام مما يدل على كثرة المحاربين فيها، وقد عملت فيها السيوف فعلها فقد ردت الشمس كما ردت ليوشع، وفي هذا إشارة إلى يوشع أو يشوع بن نون الذي ورد أن أن الله أوقف له سير الشمس حتى تنتهي المعركة، وقد طافت نسور الجو فوق الأبطال القتلى حوم العطاش على مكان المشرب.

ومثل ذلك قوله يمدح العلامة تاج الدين أبا اليمن زيد بن الحسن الكندي: (من الكامل)

أضحى لكِنْدةَ من علائك أيُّما ركنٍ على الحدثان لا يتضعضعُ[٦٤]

رُدَّت لهم شمس العلوم كأنما زمنٌ سما لك في الحقيقة يوشعُ

لو عاد عادٌ كان دونك قدره ولكان أول تابعٍ لك تُبَّعُ

يذكر أن كندة قد صار لها بفضل علمه ركن عظيم لا تستطيع مصائب الدهر أن تهدمه أو تذله، فقد عادت لهم شمس العلوم، فأنت كيوشع الذي رد الله شمس السماء، فقدره أعلى وأجل من قدر عاد ومن تبع ملك حمير.

٧-قصة هاروت:

لقد جاء توظيف ابن الساعاتي مع هاروت في السحر لا سيما سحر عين المحبوب،يقول متغزلا: (من الكامل الحذذ)

ولقد ضربت بسيف لحظك معـ ـمودًا فباء الجفنُ بالكسرِ[٦٥]

لفتوره وحْيٌ إليَّ على هاروت أنزل آية السحرِ

يبين ابن الساعاتي كيف أن المحبوبة ضربت بسيف لحظها وهو مغمود وقد باء الجفن بالكسر، فله وحي لفتوره على هاروت أنزل آية السحر.

ومثل ذلك قوله يفتخر بنظمه: (من الطويل)

أريت أخاها النجم ليلةَ نظمِها أشفَّ بيوتًا من كواكبِه الزهرِ[٦٦]

فلو أن هاروتًا رأى حسن وجهها تعلَّم من أجفانها صنعةَ السحرِ

يفتخر ابن الساعاتي بنظمه وقصيدته تلك فهي أخت النجم، لكنها أبياتها أشف وأسنى من الكواكب الزهر، ولو أن هاروت رأى جمالها لتعلم من أجفانها صنعة السحر.

ومثل ذلك في مطلع قصيدة له: (من الطويل)

وأحور في عينيه هاروت بابلٍ رمى فاتقينا نبله بالمقاتلِ[٦٧]

نجد أحور العينين فيه سحر هاروت بابل، رمى بعيونه فاتقينا نبله بالمقاتل.

٨–قصة سيدنا عيسى عليه السلام:

لا شك أن توظيف قصة هذا النبي الكريم نراه يضفي مساحة لنقل المتلقي في مخيلة واسعة عندما يحمل دلالة كبيرة موظفًا بذلك قصة هذا النبي في تكليم الناس وهو في المهد وإحيائه الموتى بإذن الله، وإبرائه الأكمه والأبرص بإذن الله عز وجل.

كتب ابن الساعاتي إلى موسى الناسخ، وقد دفع إليه كتابًا صنعت الأرضة فيه صنعًا عجيبًا فأحسن تلفيقه، فقال: (من السريع)

كم من يدٍ بيضاءَ في رمّك الـ أوراقَ تأسو من أديمٍ جريحْ[٦٨]

فالصحف الملقاة من صنعها كناشرٍ من ظلماتِ الصفيحْ

أعدتها خلقًا جديدًا فما يفرق بين المبتلي والصّحيحْ

ماتت معانيها فأحييتها فأنت موسى ويداك المسيحْ

تبين الأبيات مدى إعجاب ابن الساعاتي بذلك الصانع الماهر موسى الناسخ الذي استطاع أن يعيد الحياة إلى تلك الصحف القديمة البالية بعدما ماتت معانيها إذا به يحييها، فيده كيد المسيح عليه السلام في إحياء الموتى بإذن الله.

وقال يمدح الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل سيف الدين: (من الطويل)

إذا جئتَ عيسى ابن السماحة والندى فقد جئت في الإعجاز عيسى بن مريما[٦٩]

فكم بثَّ من فقرٍ وكم بثَّ من غنى وأنشرَ من ميْتٍ وأبرأ من عمى

فتىً أفصحت عنهُ مخايلُ مجدهِ ففي مهدهِ طفلاً بهنَّ تكلَّما

يشبه ممدوحه مستغلا اسمه عيسى بسيدنا عيسى بن مريم في إعجازه، فكم أحيا من فقير وأحيا من غنى وأحيا من ميت وشفا من عمى، فهو فتى عظيم قدره فقد تكلم في مهده بمخايل المجد والعظمة.

يقول ابن الساعاتي في مدح القاضي الفاضل بن علي البيساني، مفتخرًا بشعره وأدبه: (من الطويل)

وما أدبي إلا كتابٌ مكرَّمٌ تراجعُ حربُ الدهر وهْي به سلمُ[٧٠]

لآياته برهانُ عيسى بن مريمٍ بها تبرأ الأسقام أو تُسمع الصُّمُّ

نجد أن أدبه مثل كتاب مقدس من الكتب المكرمة تتراجع حرب الدهر عنه وهي به سلم، كما أن لآياته دلائل عيسى بن مريم فيها تشفي الأمراض أو تسمع الصم.

غير أن ابن الساعاتي كان أحيانًا " يتكلف استحضار قصص الأنبياء في شعره، حتى إنها لتخلو من عمق التصوير أو المضمون، ولعل ابن الساعاتي كان يحاول اجتذاب المتلقي بشيء من عقيدته الإسلامية، عن طريق إثارة الجانب الديني لديه، دون أن يلتفت الشاعر إلى أن هذه المحاولة قد تذهب جمال الصور التي بناها في بداية قصائده غالبًا "[٧١].

ومع ذلك فقد جاء ابن الساعاتي في توظيفه للقصص القرآنية مدركًا لهذه القصص من مكانها وبنيتها الأسلوبية المتناسبة مع غرضها الدلالي الذي يخدم هدف الشاعر وإرادته الواعية وغير الواعية، فقد وقف عند الدلالة القرآنية لها وتجاوزها في بعض المواطن بالتحوير والتلميح لها من بعد بقدرها يخدم موضوعه الشعري، فجاء توظيفه لها وتناصه معها بشكل متناسق مع الدلالة الشعرية التي يريدها هو لا ما يريد النص الأصيل.

(ب) توظيف الحديث النبوي الشريف

يعد الحديث النبوي الشريف المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم ومفسرًا لما جاء فيه ؛ لذا فقد احتل مركزًا مهمًّا في التعلم والتعليم في المجتمع الإسلامي، وأصبح مجالا للتمثل والتطبيق في الحياة العملية، ومنهلاً للاقتباس والتضمين والتوظيف والتأثر به.

وعندما نتحدث عن الحديث النبوي الشعري نقصد به هو ما ورد عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – من قول وفعل وتقرير أو صفة خُلُقية أو خَلقية،فهي تعد سيرة حياة إنسان عظيم القدر اصطفاه الله – عز وجل – من بين الناس ؛ ليكون نبيَّه ورسوله، وتمثله لأخلاق

عظيمة وكريمة قبل البعثة وبعدها، لذا فقد كان لما ورد عنه من سيرة دينية ودنيوية أهمية كبرى لدى الأجيال اللاحقة، ومنهلا للعلماء والأدباء والشعراء ينهلون من فيض هذه السيرة العطرة في أحاديثهم وتراكيبهم وصورهم.

وابن الساعاتي ذو ثقافة دينية واسعة، من بينها الحديث النبوي الشريف حيث استطاع أن يوظفه في شعره، " وترجع أهمية الحديث الشريف إلى أنه يتمم القرآن في بيان أحكام الشريعة الإسلامية "[٧٢].

وقد نهل الأدباء والشعراء من الحديث الشريف والسيرة النبوية " فسيرته واضحة المعالم عبر مراحلها المختلفة، ففي كل موقف عظة، ولكل سلوك معنى وهدف "[٧٣]، كما أنه " مصدر مهم من مصادر التراث الإنساني، ومن المرجعيات التراثية المهمة لما يتميز به من بلاغة التعبير عن أحاسيس الشعراء ورؤاهم، وأن التعامل مع هذه المصادر التراثية يضفي سمات جمالية على النصوص تفوق الكلام العادي لما تتميز به من خصائص لا تضاهيها من حيث البلاغة وقوة التعبير وشرف اللغة وقدسيتها "[٧٤].

يقول ابن الساعاتي في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من البسيط)

فسيدُ الرسْلِ حقًّا لا خفاءَ به وشافعٌ في جميع الناس مقبولُ [٧٥]

يذكر ابن الساعاتي أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هو سيد الرسل حقًّا وليس هناك خفاء في ذلك وهو الشفيع في الناس المقبول شفاعته، مستحضرًا حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول مشفع ولا فخر، ولواء الحمد بيدي يوم القيامة ولا فخر "[٧٦].

يقول أيضًا في القصيدة نفسها : (من البسيط)

خذ فضله جملةً جاء الكتاب به فعزَّ أنْ يحصر التفضيلَ تفصيلُ [٧٧]

لم يثو في أهله أهل العباء ففا ت القومَ وحيٌ بمثواهُ وتنزيلُ

الخمسةُ الغرُّ لم يُقصَ اجتماعهمُ إلا وسادسهم في الجمع جبريلُ

إن فضل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يعجز عنه التفصيل ثم يذكر أهل العباء وهم أهل البيت الخمسة الذين ألقى النبي – صلى الله عليه وسلم – عليهم عباءته، فقد ذكر الطبري أنه قد " اختلف أهل التأويل في الذين عنوا بقوله (أَهْلَ الْبَيْتِ) فقال بعضهم: عُني به رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم وعليّ وفاطمة والحسن والحسين رضوان الله عليهم.... وعن أَبي

سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم: "نزلَت هَذِهِ الآيَةُ فِي خَمْسَةٍ: فِيَّ وَفِي عَلِيٍّ رَضِيَ الله عَنْهُ وَحَسَنٍ رَضِيَ الله عَنْهُ وَحُسَيْنٍ رَضِيَ الله عَنْهُ وَفَاطِمَةَ رَضِيَ الله عَنهَا في قوله تعالى " وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا "[٧٨]

فهؤلاء الخمسة لهم منزلة عظيمة وشرف جليل، فلم ينقض هذا الجمع إلا وسادسهم جبريل عليه السلام.

يقول ابن الساعاتي في مدح أمير المؤنين الإمام الناصر لدين الله وهو الخليفة العباسي في بغداد: (من الطويل)

له شرفُ البيتِ العتيقِ وزمزمٌ وما ساقه حادٍ إليه عجولُ[٧٩]

وفضل الذبيحين الذي ما لفضله نظيرٌ وهل للنيِّرين عديلُ

يمدح الخليفة العباسي ويذكر شرف خدمة بيت الله الحرام الكعبة المشرفة وماء زمزم، ويذكر فضل الذبيحين مشيرًا إلى ما رُوي من حديث " أنا ابن الذبيحين "[٨٠]، والذبيحان هما إسماعيل عليه السلام وعبد الله والد النبي – صلى الله عليه وسلم –، فليس له نظير ولا مثيل في قدره ومنزلته.

يقول مادحًا: (من الكامل)

بطلٌ إذا حمي الوطيسُ حسبته ليثًا يصول على الكماة بأرقما[٨١]

نجد الممدوح بطلا إذا اشتدت المعركة تظنه أسدًا يصول على الأبطال بسيفه، وقوله حمي الوطيس موظفًا إياه من قوله صلى الله عليه وسلم:" الآن حمي الوطيس "[٨٢].

يقول مادحًا الملك المؤيد نجم الدين مسعود بن الملك الناصر: (من مجزوء الكامل)

لمْ يخلُ مدحي فيكمُ من معجزْ أو من كرامةْ[٨٣]

سلمانُ بيتكمُ وحقْ قُ المجد أن يرعى ذمامهْ

نجد ابن الساعاتي يفتخر بنفسه ومديحه فلم يخلُ مدحه له من معجزة أو من كرامة، فقد شبه الشاعر الممدوح بسلمان الفارسي –رضي الله عنه – الذي عدذَه الرسول – صلى الله عليه وسلم – من أهل البيت، وبهذا فإن الممدوح له مكانة عظيمة، فهو من أهل بيت المسلمين كما يرى الشاعر وحقه أن ينال الاهتمام والاحترام اللازم، موظفًا ما رُوي " أن رسول الله صلى الله عليه و سلم خط الخندق عام حرب الأحزاب حتى بلغ المذاحج فقطع لكل عشرة أربعين

ذراعا فاحتج المهاجرون سلمان منا و قالت الأنصار سلمان منا فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: سلمان منا أهل البيت "[٨٤].

وهكذا فقد كان الشاعر بتوظيفه للحديث النبوي الشريف مقلا مقارنة بالقرآن الكريم، وذلك " ليس لأن الحديث أقل أهمية، وإنما لاكتفائه من الاقتباس من آيات القرآن الكريم، لما لها من رسوخ في ذهن الشاعر والمتلقي معًا "[٨٥].

وبعدُ، فإن التراث الديني كان له حضور كبير في شعر ابن الساعاتي بأنواعه المختلفة، ولعل ذلك يرجع إلى ثقافته الدينية الكبيرة، فكان الأثر القرآني أكثر وروداً في شعره، ثم يليه الحديث النبوي الشريف، ثم توظيفه للديانات الأخرى، ثم يليه توظيف الشخصيات الدينية مثل شخصيات الأنبياء والصحابة.

الخاتمة

لقد كشفت هذه الدراسة عن الثقافة الواسعة التي كان لها عظيم الأثر في شعر ابن الساعاتي، مظهرة الروافد الثقافية التي كان الشاعر ينهل في توظيفها في شعره من خلال تأصيله نصه بالموروث الديني

وقد قدمت هذه الدراسة عدة نتائج منها: أثبتت أن الموروث الديني الإسلامي أكثر أنواع التراث توظيفًا في شعر ابن الساعاتي، وهي التأثر بالقرآن الكريم ؛ إذ يظهر كثيرًا من الجوانب المحاكية لآياته وصوره ودلالاته محورًا بما يستدعيه النسق الشعري والتجربة الخاصة.

- ثم الحديث النبوي الشريف، وقد ظهر أقل من القرآن الكريم إلا أن الشاعر بتوظيفه عن طريق الإحالة والاقتباس والتضمين جاء متوافقًا في كثير من الجوانب معطًا نصه القوة الدلالية.

الهوامش:

[١] - " الصورة الشعرية في شعر ابن الساعاتي " سهام راضي ، ١٢٦

[٢] – " توظيف الموروث في شعر ابن سناء الملك " صقر خليل عبد العزيز ، ص ٢٢

[٣] – " التناص نظريًّا وتطبيقيًّا " أحمد الزعبي ، ص ٣٧

[٤] – " توظيف الموروث في شعر ابن سناء الملك " ص ٢٢

[٥] – " الشعر العربي المعاصر ، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية " عز الدين إسماعيل ، دار عودة ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٧م ، ص ٣٢

[٦] – " الأدب في العصر الأيوبي " محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، ط٤ ، ١٩٩٧م ، ص ٧١

[٧] – " الصورة الشعرية في شعر ابن الساعاتي " سهام راضي ، ص ١٢٦

[٨] – " النص الأدبي وتحليله وبناؤه ، مدخل إجرائي " إبراهيم خايا ، دار الكرمل ، عمان ، ١٩٩٥م ، ص ١٦٦

[٩] – " التناص نظريًّا وتطبيقيًّا " أحمد الزعبي ، ص ٩٥

[١٠] – "الصورة الشعرية في شعر ابن الساعاتي " ص ١٣٣

[١١] – " المضامين التراثية في شعر عرار" أنور أبو سويلم ، مجلة دراسات الأردنية ، مج ١٦ ، ع ٣ ، ١٩٨٩م ، ٢٠٣٨

[١٢] – " الاقتباس والتضمين في شعر عرار " موسى ربابعة ، ص ٢٢٣

[١٣] – " الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية " عز الدين إسماعيل ، دار عودة ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٧م ، ص٣٢

[١٤] – " ديوان ابن الساعاتي " ٦١/١

[١٥] – " سورة الأنبياء " (٦٩)

[١٦] – " ديوان ابن الساعاتي " ٦٢/١

[17] – "سورة المدثر " (٢٧–٢٨)

[18] – " ديوان ابن الساعاتي "١/ ٦٧

[19] – "سورة طه " (١٠)

[20] – " ديوان ابن الساعاتي "٢٧٥/١

[21] – " ديوان ابن الساعاتي " ١٥٤/٢

[22] – " سورة المائدة " (٤٢)

[23] – " سورة المسد " (١)

[24] – " ديوان ابن الساعاتي " ١٥٠/١

[25] – " سورة النور " (٣٩)

[26] – " ديوان ابن الساعاتي " ٣٧٧/٢

[27] – " سورة الحج " (٤٥)

[28] – " ديوان ابن الساعاتي " ٥٢/٢

[29] – " ديوان ابن الساعاتي " ١٥٦/١

[30] – " سورة الحجر " (١٦–١٨)

[31] – " ديوان ابن الساعاتي " ٢٢٥/١

[32] – " المصدر السابق " ٤٠٦/٢

[33] – " سورة الفتح " (٤٦)

[34] – " ديوان ابن الساعاتي " ٢/ ٤٠٧

[35] – " سورة الحجر " (٤٦)

[٣٦] – " ديوان ابن الساعاتي " ٢٩٦/٢

[٣٧] – " سورة المزمل " (١٧)

[٣٨] – " ديوان ابن الساعاتي " ٢٩٦/٢

[٣٩] – " سورة هود " (١٠٠)

[٤٠] – " أشكال التناص الشعري – دراسة في توظيف الشخصيات الترثية " أحمد مجاهد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨م ، ص٨

[٤١] – " الصورة الشعرية في شعر ابن الساعاتي " سهام راضي ، ص ١٢٩

[٤٢] – " المصدر السابق "١٥٩/١

[٤٣] – " المصدر السابق "٦/٢

[٤٤] – " ديوان ابن الساعاتي " ٣٢٨/٢

[٤٥] – " المصدر السابق " ١٥٩/١

[٤٦] – " المصدر السابق " ١٤/٢

[٤٧] – " المصدر السابق " ١٥٠/٢

[٤٨] " ديوان ابن الساعاتي "١٥٩/٢

[٤٩] – " المصدر السابق " ١٧٥/٢

[٥٠] – " المصدر السابق " ١٧٧/٢

[٥١] – " ديوان ابن الساعاتي" ٣٤٨/٢

[٥٢] – " المصدر السابق " ٤٠٨/٢

[٥٣] – " المصدر السابق " ٢ /٤٠٩

[٥٤] – "المصدر السابق " ٦٦/٢

[٥٥] – " ديوان ابن الساعاتي " ٢٨٧/١

[٥٦] – " المصدر السابق " ٩٢/٢

[٥٧] – " المصدر السابق " ١٣٠/١

[٥٨] – " الصورة الشعرية في شعر ابن الساعاتي " سهام راضي ، ص ١٢٨

[٥٩] – " ديوان ابن الساعاتي " ١٩٦/١

[٦٠]– " المصدر السابق " ٨٨/١

٦١ – " مسند الإمام أحمد بن حنبل " أحمد بن حنبل ، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة ، ط٢ ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م ، ٦٥/١٤

[٦٢] – " الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم " أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤٥/٥

[٦٣] – " ديوان ابن الساعاتي " ٩١/٢

[٦٤] – " ديوان ابن الساعاتي " ٢٣٨/٢

[٦٥] – " المصدر السابق " ٢٠٨/١

[٦٦] – " المصدر السابق " ٢٩٥/١

[٦٧] – " ديوان ابن الساعاتي " ٢٧/٢

[٦٨] – " المصدر السابق "١١٦/١

[٦٩] – " المصدر السابق " ١٧٨/١

[٧٠] – " المصدر السابق " ٧١/٢

[٧١] – " الصورة الشعرية في شعر ابن الساعاتي " سهام راضي ، ص ١٢٨

[٧٢] – " الفن ومذاهبه " د/ شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ط٦ ، ص ٢٠

[٧٣] – " قضايا تراث المسلمين " خميس البكري ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٨م ، ص ٤٥

[٧٤] – " توظيف التراث في شعر صفي الدين الحلي " ص ١٣١

[٧٥] – " ديوان ابن الساعاتي " ٤٨/١

[٧٦] – " صحيح الترغيب والترهيب " محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط ٥، ٢٤٠/٣

[٧٧]– " ديوان ابن الساعاتي " ٤٩/١

[٧٨] – " سورة الأحزاب " (٣٣)

[٧٩] – " ديوان ابن الساعاتي " ٥٣/١

[٨٠] " السلسة الضعيفة " محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض ، لا أصل له ،(٥٠٠/١)

[٨١] – " ديوان ابن الساعاتي " ١٩٢/٢

[٨٢] – "مسند الإمام أحمد بن حنبل " دار الفكر ،ط٢ ، بيروت ، ١٩٧٨م ، ٢٠٧/١

[٨٣] – " ديوان ابن الساعاتي " ١٩٤/١

[٨٤] – " المستدرك على الصحيحين " محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري ،تحقيق / مصطفى عبد القدر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م ، ٦٩١/٣

[٨٥] – " الصورة الشعرية في شعر ابن الساعاتي " سهام راضي ، ص ١٣٩

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- الأدب في العصر الأيوبي " محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، ط٤، ١٩٩٧م

٢- أشكال التناص الشعري – دراسة في توظيف الشخصيات الترثية " أحمد مجاهد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م

٣- الاقتباس والتضمين في شعر عرار العنوان دراسات المصدر : العلوم الإنسانية -: مج محكمةالعربي المعاصر ١٩٩٢: المجلد/ ١ ،١٩ع : موسى سامح ربابعة

٤- التناص التاريخي والديني، مقدمة نظرية مع دراسة تطبيقية في رواية رؤيا لها " أحمد الزعبي، مجلة أبحاث اليرموك، مج١٣، ع١ ١٩٩٥م

٥- توظيف التراث في شعر صفي الدين الحلي " وائل عبد الله مفلح، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، كلية الآداب، الأردن، ٢٠٠٨م.

٦- توظيف الموروث في شعر ابن سناء الملك " صقر خليل عبد العزيز، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة اليرموك، ٢٠١١م

٧- الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم " أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار الجيل، بيروت

٨- السلسة الضعيفة " محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض

٩- الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية " عز الدين إسماعيل، دار عودة، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م

١٠- ديوان ابن الساعاتي" تحقيق الأستاذ أنيس المقدسي، المطبعة الأميركانية، بيروت ١٩٣٨

١١- صحيح الترغيب والترهيب " محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط ٥

١٢- الصورة الشعرية في شعر ابن الساعاتي " سهام راضي محمد حمدان، رسالة ماجستير، جامعة الخليل، ٢٠١١م

١٣- الفن ومذاهبه " د/ شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٦

١٤- قضايا تراث المسلمين " خميس البكري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٨٨م

١٥- المستدرك على الصحيحين " محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري،تحقيق / مصطفى عبد القدر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م،

١٦- مسند الإمام أحمد بن حنبل " أحمد بن حنبل، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

١٧- المضامين التراثية في شعر عرار" أنور أبو سويلم، مجلة دراسات الأردنية، مج ١٦، ع ٣، ١٩٨٩م

١٨- النص الأدبي وتحليله وبناؤه، مدخل إجرائي " إبراهيم خايا، دار الكرمل، عمان، ١٩٩٥م